يامون عمر_قسم التاريخ: جامعة الجزائر 02 أبو القاسم سعد الله

التنقيب عن الآثار في بلاد الرافدين بين الهواية والنبش والعلم المنظم (نشوء العمل الآثاري وتطوره).

يمكننا أن نعتبر التنقيب الأثري في بلاد الرافدين القديمة عنصرا أساسيا للحصول على مخطط صحيح وواضح عن هذه الحضارة الهامة التي منحت الإنسانية أرقى المعايير الحضارية، هذا التنقيب قد حدد وشرح بشكل جيد النفائس والآثار الخاصة بمختلف الحقب التاريخية والغير تاريخية (ما قبل التاريخ) لهذه الحضارة المهد، ونستخلص أن هذه الحركة (التنقيبات) المتبناة من طرف كبار الآثاريين في منطقة الشرق القديم بالتحديد في بلاد الرافدين كانت ميلادا جديدا لعملية جمع الإرث الإنساني الرافدي، والذي يمثل العامل المؤثر في حفظ البصمة الحضارية لأمة مزدهرة على واجهة التاريخ القديم.

Abstract:

On considèrent l'archéologie mésopotamienne comme un élément essentiel pour avoir une planification juste sur cette civilisation importante qui a donnée les plus grandes références civilisatrices pour l'humanité, cette archéologie a bien déterminée et expliquée les édifices et les vestiges des déférentes périodes historiques et préhistoriques de cette civilisation fondatrice.

On outre que l'archéologie empruntée par les grands archéologues en orient et plus précisément en

Mésopotamie qui a donnée naissance pour l'accumulation d'héritage humanitaire mésopotamien, qui et l'instrument le plus éfficasse pour préserver l'emprunte civilisatrice d'une nation remarquable sur la façade de monde antique.

أولا: بلاد الرافدين ورشة للأعمال الآثارية:

كان الغرض من التنقيب عن الآثار خلال القرن التاسع عشر جمع ما أمكن جمعه من القطع الفنية واللقى بأقل ما يمكن من الوقت والجهد والمال دون الالتفات إلى التدقيق في معاثر تلك اللقى والعناية برسم[1] وتصوير[2] الأماكن التي وجدت فيها وعدم المعرفة بتسلسل تواجدها الطبقي والزمني، فقد كان التنقيب عن الآثار عبارة عن عملية نبش وحفر لجمع اللقى والكنوز المطمورة في باطن الأرض وغيرها من الرموز التاريخية والفنية لحضارات الماضي دون الالتفات إلى الدلائل الأثرية وما تنطوي عليه من تفسيرات عملية عن الماضي وأحواله[3].

وقد بدأت ضرورة القيام بعمليات سبر واستكشاف المواقع الأثرية في الوقت نفسه الذي كانت تتقدم فيه الدراسات اللغوية للتعرف على أسرار اللغات القديمة في المنطقة، وحتى أواسط القرن التاسع عشر كان الرحالة الأوروبيون يكتفون بالتعرف على ما يجدونه على سطح الأرض وسفوح التلال من آثار العصور الغابرة ويجمعون ما يمكن جمعه من الأشياء والرقم، وكان الحديث عن تلك التلال يتردد في الغرب منذ رحلة الإسباني "بنيامين الطليطلي" خلال القرن الثاني عشر ثم رحلة النبيل الإيطالي "بترو دلافالي" والفرنسي "تكسييه" خلال القرن السابع عشر، وقد قام هؤلاء المستطلعون الأوائل بوصف المواقع الأثرية

والآثار الظاهرة جغرافيا وطبوغرافيا ومعماريا مما مهد السبيل أمام مغامرين آخرين[4]،والمعارفالمتعلقة ببلاد الرافدين القديمة حديثة نسبيا فحتى أواخر القرن الثامن عشر لـ

وكانت بداية التنقيب العالمي في المنطقة منذ أربعينيات القرن التاسع عشر عندما عهد بأعمال التنقيب إلى الدبلوماسيين من القناصل الذين كانوا أفضل المِؤهلين للعمل في بلاد بعيدة في ظل أنظمة تمتع السلك الدبلوماسي فيها بنفوذ لا بأس به[6]، فبعد رحلة "بنيامين الطليطلي" بحوالي أربعة قرون ونصف حدثت رحلة "بترو ديلافال" عام 1606م حيث تمكن هذا الرحالة من الوصول إلى مدينتي بابل[7] وبرسوبوليس[8]في جنوب إيران[9] حيث قام بإحضار قطع من الآجر المنقوش من بابل وأور ونشر لأول مرة نسخا لنقوش أخرى من العاصمة الفارسية وأطلق على هذا النوع من الكتابة اسم "الكتابة الأسفينية"[10].

كما نجد أن ملك الدنمارك قد أرسل بعثة علمية إلى الشرق لجمع كل ما يمكن من معلومات عنه في كافة فروع المعرفة، وقد تمكن رئيسها "كارستن نيبور"[11] من نسخ نقوش من برسوبوليس أثارت اهتمام علماء اللغات فبذلوا جهودهم في محاولة تفسيرها[12]، فرغم الصعاب التي واجهته تمكن من التعرف على النص المعثور عليه والذي يضم ثلاثة نماذج من الكتابة المسمارية، ووظف الباحثون خبرتهم في هذا الميدان فاكتشفوا أن الخط مائل في هذه الكتابة ويعني إشارة الفصل بين كلمات النص[13] ويرجع إليه الفضل في تقديم أول وصف مفصل لموقع نينوى على إثر الرحلة العلمية التي قام بها إلى الشرق الأدنى مابين (1761 و1767م) وقدم عن هذه الرحلة تقريرا شاملا أثار الاهتمام في الأوساط الأكاديمية وترجمت أعماله من الألمانية إلى عدة لغات[14].

وكان كذلك من أول المبادرين في عمليات التنقيب الأب "جوزيف بوشامب"عام 1789م وهو عالم فلكي قام ببعض السبور في موقع "باب عشتار"[15] ببابل ولخص بمخطط على مدى خمسين سنة من أعمال التنقيب، متوخيا تطوره

واتساعه وفائدته في المستقبل لزيادة معارفه عن الشرق غير أنه لم يتابع نشاطاته هذه، إلى جانب ذلك قيام المنقب "ر.ميغو R.Miguo"ببعض السبور البسيطة فقط[16]، وقبل ذلك فقد سبق الأب "بوشامب" عالم النبات "ميشو A.Michaud" الذي زار موقع بابل وحمل حجرا عليه نص مسماري بابلي هو "حجر ميشو"الذي أسرع الدارسون إلى العناية به وتقديم قراءات له ليس لها الآن أي اعتبار علمي[17].

أما القنصل الإنجليزي في بغداد "رولنسون H.C Rawlinson" فكان في بحث مستمر عن النصوص الفارسية والآشورية في أرض الرافدين وفوق هضبة إيران[18]، وتمكن من التعرف على الجزء الأكبر من الأبجدية الفارسية المسمارية القديمة التي أصبحت مجهولة وبالتالي أصبح من الضروري بدء الحفريات في التلال الأثرية نفسها[19] وكانت بداية أعماله عام 1835محيث قام بنسخ نقش طويل للملك الفارسي "داريوس الأول" المنحوت في صخرة عالية عند بهيستون[20] في إيران، وتضمن هذا النقش رسما للملك ونصا يقع ضمن ثلاثة عشر عمودا دونت بالكتابات المسمارية الثلاث[21]، ونقل خلال عام 1836م العديد من الكتابات الشهيرة في بلاد فارس[22] وقد مكنته هذه الكتابة التي تمثل مادة غنية لأبحاثه من فك رموز لغة أخرى وهي العيلامية الحديثة وبلغ عدد الرموز التي فكها بمساعدة العالم "لورانس Lawrens" إلى حوالي المائتين[23]، واستطاع "رولنسون" من تعيين قيمة 246علامة مسمارية وكشف عن مبدأ تعدد الأصوات والمعاني، وتحقق الباحث "هانكس" من أن بعض العلامات هي مقاطع مركبة وكلما تعمق البحث في حل الرموز ازداد أمرها تعقيدا بتعدد التوجهات الغير متناسقة في عدد من العواصم الغربية، لذلك رأت الجمعية العلمية الآسيوية في لندن أن تقترح على العلماء المهتمين بالموضوع أن يحل كل منهم على طريقته الخاصة، فأرسل "رولنسون"من إنجلترا

و"هانكس"من ايرلندا و"تالبوت" من اسكتلندا و"أوبرت" من فرنسا مخطوطاتهم ففتحت عام 1857م، وكانت النتيجة مرضية تماما بعد مطابقة ترجمات النص وتبين أنه يتحدث عن أعمال الملك الآشوري "تغلات بلاصر الأول" وفتوحاته وأصبح من المؤكد العثور على مفتاح الكتابة المسمارية التي توقف استخدامها منذ القرن الأول للميلاد بعد أن كانت نظام الكتابة السائدة في بلاد الرافدين والشرق الأدنى مدة ثلاثة آلاف عام[24].

وكان أهم انجاز علمي في ميدان التنقيب عن خبايا حضارة بلاد الرافدين القديمة هو استقراء الكتابة المستخدمة خلال العصر الأخميني[25] وذلك بفضل جهود علماء اللغات الشرقية في المجامع الأوروبية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر[26]، فابتداء من عام 1950م أسفرت الحفائر عن نتائج باهرة، فكان " بوتا Paule Emile Botta" المنقب في موقع "خرسباد"[27]و"لايارد Austen Layard"المنقب في مدينتي "نينوى" و"كالح" وهم من بين الأثريين الأوائل الذين وفقوا إلى حد بعيد بحيث تم الكشف عن الكثير من التماثيل والنقوش والأختام[28]، وفي أوت 1851م قام الباحث "ليون فوتشر M. Léon Faucher" وزير الداخلية باقتراح مشروع على الجمعية العامة يسمح له قانون الحكومة من خلاله ارسال بعثة علمية لاستكشاف المناطق البعيدة من بلاد الرافدين، وقد خصص لهذا المشروع مبلغ سبعين ألف فرنك من أجل توفير مستلزمات البعثة، وفي شهر أكتوبر انطلقت بقيادة مجموعة من الباحثين منهم "فولجانس Fresnel Fulgence"القنصل الفرنسي السابق في البصرة و"فيليكس توماس Félix Tomas" صاحب أعلى جائزة تخص فن العمارة الروماني، إضافة إلى ذلك "جول أوبرت Jules Oppert" العالم الألماني صاحب الجنسية الفرنسية وقاموا بدءا من عام 1852م بمعاينة موقع "الجمجمة"[29] الأثري[30].

تفسير النصوص الكتابية في التعريف بتاريخ المنطقة، ورغم ما تمثله هذه الكتابات القديمة من أهمية فقد ساهمت المادة الأثرية بشكل أكثر قيمة في تسليط الضوء على مختلف المراحل التاريخية والحقب التاريخية التي مرت بها المنطقة، كما ساهمت في تقديم بيانات وافية من حيث التطرق إلى جميع التفاصيل، ومن هنا يتبين من جملة جهود الأثريين المبذولة في التنقيب عن الآثار وما حققته من نتائج لا تقل أهمية عن تفسير رموز الكتابة المسمارية القديمة[34].

كما أرسلت الكنوز الأدبية والفنية التي كشفت عنها الحفريات في أرض الرافدين إلى مختلف المتاحف الكبيرة وكان السباق في هذا الميدان "متحف اللوفر" بباريس والذي احتوى مجموعة مميزة تمثل جميع عهود الحضارة البابلية والآشورية، ومتحف لندن ببريطانيا الغني بالوثائق التي تعود إلى العصور المتأخرة من تاريخ بلاد الرافدين إضافة إلى الوثائق لمتوفرة في متحفي القسطنطينية وبغداد[35].

ثانيا: التنقيب في مدينة نينوى بين عشوائية النهب ومنطقية العمل الأثري المنظم:

ورد اسم "نينوى" ضمن الوثائق المسمارية التي وجدت ألواحها في "كبدوكية"[36]القديمة والتي ترجع إلى الألف الثانية ق.م، وكانت مركزا لعبادة "عشتار" ويؤيد ذلك وثيقة أخرى ترجع إلى زمن الملك "شمشي أدد" وتذكر أن معبد "عشتار" قد بناه "ماينشتوسو" (2295- 2281 ق.م) ابن "سرجون الأكدي"، وقد جذب انتباه الأثريين الأوائل معلم النبي "يونس" عليه السلام والتقاليد التي تدور حوله، وجاء بعد ذلك "جون كارتريت John Cartaright" خلال القرن السابع عشر وأعلن أنه في ذلك الموقع كانت تقوم مدينة "نينوى" القديمة[37]، وفيما يخص عمليات التنقيب فقد نشر في هذا الإطار أكثر من

مليوني نص مسماري باللغتين السومرية والأكدية بعد اكتشاف كل من الباحثين "لايارد" و"جورج سميث" لمكتبة الملك "آشور بانيبال" التي تضم الآلاف من الألواح[38].

واستطاع "لايارد" خلال حملته الأولى إلى موقع "نمرود" أن يجد الوقت الكافي لمتابعة مشاريع المنقب "بوتا" في "تل قوينجق"، وعثر عام 1847م على خرائب جدران ثبت أنه قصر الملك "سنحاريب" وفي عام 1849م أصيب بخيبة أمل بعد العثور على أدلة تبين تخريبه بعد حرق "نينوى" عام 612 ق.م، وبالرغم من هذه الأضرار قام "لايارد" بمعاينة الغرف الإحدى والسبعين والتي احتوت حوالي ألفي لوح حجري منحوت، كما عثر في غرفتين صغيرتين على كميات كبيرة من الألواح المكتوبة وتتضمن قسما من مكتبة الملك "سنحاريب" التي كانت مخزنا ضخما للمعارف، وقام كذلك بمعاينة القسم الخالي من "تل النبي يونس" حيث عثر على نقوش تضم أسماء للملوك "حدد نيراري" و"سنحاريب" و"أسرحدون" لكن سكان المنطقة قاموا بإيقاف حفرياته بشكل نهائي عام 1851م ليتحمل مساعده "هورموزد رسام"[39] مسؤولية متابعة عمليات التنقيب الأثري[40]،وفي عام 1852م بادرت الحكومة الفرنسية باتخاذ إجراءات للقيام بأبحاث جديدة في آشور، وقد كلفت "فيكتور بلاس Victor Place" قنصل الموصل لمواصلة أعمال المنقب "بوتا"، وفي المقابل قام الإنجليز بتعيين "رسام" بمواصلة الحفريات وكان هذا الأخير المساعد الأول للمنقب "لايارد" وهذا ما يجعله أكبر المخولين لمواصلة أعماله، وبذلك فقد تواجدت كل من فرنسا وإنجلترا معا في موقع "نينوى"، وفي هذا الحين كان الباحث "رولنسون" الذي طالما أنار الباحثين الإنجليز ببحوثه يتفاوض مع "بلاس" من أجل اقتسام تلي "نينوى (قوينجق والنبي يونس) الذين كانا قد خضعا لاستكشاف "لايارد" و"بوتا"، وقد وضعت حدود فاصلة بينهما ومنحت الجهة الشمالية لفرنسا، وكان "بلاس"

مترددا حول هذا الاقتراح، فقرر مواصلة حفرياته في "خرسباد" لضمان نجاحه دون مخاطرة، وقد تخلى عن "قوينجق" لصالح "خرسباد" لهذا واصل الإنجليز تنقيباتهم في الجزء الشمالي من "تل قوينجق" والذي عثروا فيه على قصر جديد تبين أنه قصر الملك "آشور بانيبال" الغني بنماذج عديدة لفن النحت الآشوري[41]، وباعتبار أن "بلاس" قد كان مهندسا معماريا فقد ساعده اختصاصه هذا على إعداد مخطط كامل لتفاصيل قصر "سرجون" الواسع في "خرسباد" بزاقورته وقاعاته الفخمة، واستطاع "بوتا" و"بلاس" من نشر مكتشفاتهما بسرعة بفضل الدعم الحكومي الذي تلقياه[42]، فكان مطبوعا ضخما احتوى الكثير من الرسم والصور والشروحات، كما عكس جهد المنقب والفنان والمهندس المعماري معا، وكان استقبال هذا الكتاب منقطع النظير في فرنسا وخارجها لكثرة ما ضم من شواهد، وهذا ما أكسب "اللوفر" أجمل مقتنياته من نفائس النحت الآشوري كما ربحت المكتبة الفرنسية أغنى مطبوعاتها وفقدت قصور "نينوى" و"خرسباد" أثمن ما كان يزين جدرانها من روائع الفن الإنساني القديم[43].

وخلال عام 1853م قام "رسام" بعد بحوث طويلة وغير مجدية بمواصلة الحفريات لكن في الجهة الشمالية لنينوى وقد عثر على جزء كبير من البناية وهي أقل تضررا من باقي المخلفات، وبعد ذلك قام الباحث M. Loftus[44]بالكشف عن بقايا بناية أقل ارتفاعا بحوالي 20 قدم (6 أو 7 أمتار) عن القصر الذي كشف عنه "رسام" والذي ينم عن شرفة هي أقل ارتفاعا من نفس البناية، إذن فتل "قوينجق" يضم قصرين: الأول ويقع في الجهة الجنوبية الغربية وقد كشف عنه "لايارد" والثاني يقع في الجهة الشمالية وقد اكتشفه كل من "رسام" و M.Loftus[45].

وخلال عام 1927م تحول المنقب "كامبل طومبسون" بعد عمله القصير في مدينة "أور" و"أريدو" إلى العمل في قلب العاصمة الآشورية "نينوى"، والتحق به عام 1931م الآثاري الانجليزي "ماكس مالوان"[46]، وقد كان الغرض من مواصلة التنقيب في "تل قوينجق" الكشف عن المزيد من التفاصيل في بقايا المباني الآشورية التي أغفلها كل من "بوتا" و"لايارد" في حفرياتهم السريعة بحثا عن المنحوتات وقطع الفن الآشوري البارزة[47].

وتتابعت عمليات الكشوف الأثرية في "تل قوينجق" أين تم العثور على معبد مخصص لعبادة الإله "نبو" ومعبد للإلهة "عشتار" وقصر آشوري يعود إلى القرن السابع ق.م، ووجدت تحت الطبقة الآشورية خمس طبقات تعود إلى بداية العصور التاريخية، عثر فيها على آنية فخارية مطلية وأسطوانات تعود إلى الألف الرابع ق.م، كما عثر في تل النبي يونس على قصر آشوري يرقى على الأرجح إلى عهد "أسرحدون" كما قام الملك "آشور بانيبال" بترميم قصر جده أين يظهر فيه الفن الآشوري برونقه[48]،وتعد المكتبة المحتواة في القصر مصدر رئيسي لمعرفة فترة حكم هذا الملك ليس ذلك وحسب بـــل معرفة جذور الحضارة الآشورية بأكملها[49].

ومما يؤسف له أنه لم تتبع آنذاك أية طريقة منهجية يراعى فيها تعاقب الطبقات الأثرية المنضدة فوق بعضها البعض لمعرفة تسلسلها الزمني الطبقي"Stratigraphie"[50]، وكان هم المنقبين الحصول على الآثار بأي شكل بحفر أنفاق في قاعدة الجدران دون دراسة الطبقات العليا بطريقة نظامية ومنهجية، إلا أن الممارسة العملية والتجربة الفعلية في ميدان التنقيب وما تلا ذلك من دراسات ومناقشات وأبحاث، ذلك كله أدى إلى تحسين الطرق والمناهج المتبعة في التنقيب لتمييز السويات المختلفة المناسبة للمراحل التي شغلت فيها الأجيال المتعاقبة المكان، وإن لهذا التمييز أهمية كبيرة من وجهة النظر

التاريخية، حتى ولو كانت بعض الطبقات المسبورة عميقة، وإن معرفة تلك الطبقات وخصائصها مفيدة جدا لتأريخ الأدوار المتعاقبة[51].

ثالثا: العمل الأثري المنظم في بلاد الرافدين:

لم تأخذ عمليات التنقيب منحا علميا إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مع المهندسين الألمانيين "كولدواي Koldewey" في بابل (1899- 1917م) و "أندريه Andrae" في آشور (1903- 1914م) واليهما يعود الفضل في التغيير الكلي لأساليب التنقيب الأثري رغم أن أعمالهم اقتصرت على دراسة سطحية للمواقع الأثرية[52].

وضمن هذا المجال فقد اشتهرت البعثات الألمانية بأساليبها العلمية في التنقيب وأولى تجاربهم في ذل أعمالهم المعروفة في بابل، حيث اشتغل الألمان مدة سبعة عشر عاما (1899- 1918م) وقد عنوا بصورة خاصة بالأبنية الأثرية فخططوا في تقاريرهم ما وجدوه بصورة مفصلة ثم رسموا أشكالا أصلية لتلك المباني بالشكل الذي كانت عليه في الأصل، ومثل هذا العمل يعتبر اهتماما علميا هاما جدا لم يسبق أن قام به المنقبون من قبل[53].

وبعد تأسيس هذه الجمعية الألمانية الشرقية ببرلين بأمر من القيصر "فيلهم الثاني" وضعت هذه البعثة أهدافا محددة للعمل من بينها:

- الفحص الدقيق لجميع البقايا البنائية في المدينة.
- التأكيد على التعاقب الأثري الطبقي للتراكمات الأثرية في الموقع لاستنباط الأبعاد الزمنية للأدوار التاريخية التي مرت بها المدينة.

كان عمل البعثة دقيقا وشاملا في حقل التنقيب والتوثيق والتسجيل[54] والرسم وبالرغم من عدم تحقيق أهدافها الرئيسية وذلك بالتنقيب في العمق لاستظهار طبقاتها السفلى من أزمنة مختلفة خاصة من زمن الملك "حمورابي" بسبب قرب مستوى طبق المياه الجوفية من السطح، ومع هذا تمكنت بعثة "كولدواي" بعملها

الدقيق والصبور أن تتوصل إلى طريقة مبتكرة في استظهار صفوف اللبن المشيدة بها جدران غالبية مباني المدينة التاريخية بتلك الطريقة التي أصبحت مقياسا يقتدى به للعمل الدقيق في مجال التنقيب، وبذلك استطاعت العديد من بعثات التنقيب بعد ذلك وباتباع هذا الأسلوب في الحفر من التوصل إلى اكتشاف مباني كاملة كانت تعتبر من قبل أكواما من الطين[55].

وإن العبقرية التي تميز بها عمل المنقبون الألمان الطويل في المنطقة مازالت تحظى بإعجاب الأجيال التالية من علماء الآثار ومازالت بادية للعيان في نتائج أعمالهم، لقد رافق "كولدواي" في عمله مساعدون معماريون الذين جمعتهم بمفسري النقوش المكتوبة علاقة منافسة شريفة في الميدان، ومع ذلك فنحن ندين للتعاون بين جميع هؤلاء بالمعلومات التفصيلية المتوفرة لدينا عن المدينة، وقد كان بين "كولدواي" و"أندريه" مجموعة من المنقبين الأوائل استطاعوا استيعاب مسائل طبقات علم الآثار، وكان هؤلاء أول من يدرب مجموعة من الخبراء في الكشف عن الأسوار، وتجمع معظم الآراء أن طريقتهم في العمل كانت على درجة عالية من الكفاءة لم تكن متوقعة في تلك الفترة المبكرة من تقنيات التنقيب الأثري[56].

وفيما بعد نقل الاهتمام إلى الحضارة السومرية، ففي عام 1912م تعهد الأب "جنوياك" بدراسة مدينة كيش التي تعد إحدى العواصم الكبرى خلال الألف الثالثة، حسب الجدول النسابي الذي نشره وتبعه في ذلك كل من " س. لانغدون S. Langdon" و" أ. ماكي E. Makay" ما بين عامي (1932– 1933م) من قبل وكان المرتكز مدينة أور التي كانت هدفا للاستثمار المكثف من قبل "هال" وخاصة "ليونارد وولي" ما بين (1922– 1934م) حيث اعتلى خلالها صدى اكتشاف القبور الملكية، ناهيك عن أوروك التي جلبت أنظار علماء الآثار الألمان، فقد قاد "ج. جوردان" فيها حملة استكشافية خلال عامي

(1912– 1913م) تبعها التنقيب النظامي اعتبارا من عام 1928م، وأخيرا البعثة الأمريكية للمعهد الشرقي لشيكاغو التي أخذت على عاتقها دراسة عدة تلال في وادي ديالي ومن ثم في رافد الدجلة على نفس ارتفاع بغداد (أسمر، خفاجة، أغرب من عام 1933 إلى 1938م) هادفة إلى ابراز ميزات هذا التنقيب في المنطقة، وهذا ما قامت به أيضا بعثة "ر. بريدوود R. Braidwod" في سهل العمق في سورية، إن هذا المفهوم بمبتكراته ظهر وكأنه منفذ في تطبيق الأعمال الآثارية[57].

وما يمكن قوله في الأخير أن التنقيب في بلاد الرافدين يتميز بجانبين متقابلين فالأول وهو الجانب الإيجابي حيث أنه قبل فترة التنقيبات بقي تاريخ المنطقة رهين الروايات الشفوية المتداولة عبر الأجيال وحبيس المعطيات الشحيحة التي أتت بها بعض المصادر الكتابية الجغرافية منها والدينية، إلى جانب ذلك فقد جعلت روايات الرحالة الأوائل هذه المنطقة أساسا للحكايات والخرافات التي جعلت من تاريخها سرا غامضا عبر العصور، وبعد بداية التنافس الحضاري الاستعماري صارت بلاد الرافدين موطن الكنوز والنفائس الثقافية الراقية كما صارت محط أنظار جميع أقطار العالم وبالخصوص الدول الأوروبية التي سخرت جميع إمكانيتها للتعريف بمخزون المنطقة، وفي هذا الإطار وضعت بلاد الرافدين ضمن موكب الحضارة الإنسانية العريقة وكتبت عنها الكثير من المؤلفات والمجلدات باعتبارها مهد المدنية الأولى.

أما الجانب السلبي لعمليات التنقيب فيتجلى من خلال نقل المعالم الحضارية الرافدية من مواطنها الأصلية نحو دور المتاحف الأوروبية حيث لم يحتفظ المتحف العراقي سوى ببعض القطع الفنية المتواضعة في رفوفه بالمقارنة مع ما تم جمعه وتصنيفه ضمن مراكز البحث الأكاديمية الأوروبية التي جعلت من المناطق الأثرية في بلاد الرافدين محطة لإنجاز مشاريعها وبحوثها، ورغم وضع

الأوروبيين أسس لعلم الآشوريات والأكديات وجهودهم المعتبرة في حقل الدراسات اللغوية وحلهم لرموز الكتابات القديمة إلا أن هدفهم الرئيسي كان البحث عن الشهرة والأمجاد والثروة ودليل ذلك التنقيب العشوائي الذي قاموا به في إطار الكسب السريع، كما أن مجهوداتهم كانت موجهة في الأساس لخدمة سياسة دولهم الخارجية دون النظر إلى عواقب التنافس الشرس حول مخلفات المنطقة الحضارية.

إن استحواذ الغرب على المخلفات الحضارية للمنطقة يفتح بابا واسعا للنقاش حول دور العقل العربي بشكل عام في حماية موروثه، حيث أن الجهود الأثرية الأجنبية تبين إلى حد بعيد مدى بعد المدارس العربية عن فهم مصطلح "الإرث الثقافي" ودليل ذلك أن معظم عمليات التنقيب في مختلف مناطق العراق لم تكن بشكل رسمي بل كانت تجسد تحت قناع التمثيل الدبلوماسي، إلى جانب ذلك فقد كانت الحفريات بمصادقة الحكومة الرسمية التي منحت التفويضات اللازمة للحفر دون فرض الرقابة والتي اغتنمها الفكر الأوروبي في توسيع دائرة غنائمه الحضارية، وفي إطار الصراع الحضاري بين الشرق والغرب عملت الكثير من التوجهات الفكرية والمدارس وبعض المخابر العلمية الغربية الكبرى على إضفاء صفة البدائية على المنجزات الحضارية التي ميزت تاريخ بلاد الرافدين، ويتمثل هذا التوجه في إرسال قناصل دبلوماسيين بدل المختصين في الميدان وكان معظمهم من الرحالة والمغامرين وجامعي التحف وصائدي الجوائز، لهذا اعتبرت عملياتهم الأولى تخريبية بالدرجة الأولى حيث كانت الحفريات استفزازية لا تبالي بقيمة الآثار التي تعد جزءا لا يمكن الاستغناء عنه في رسم التاريخ الفعلي للمنطقة، لكن مع مجيء الدفعة النهائية للباحثين النموذجيين أعيد الاعتبار للوزن الثقافي للمنطقة من خلال الكشف عن القيمة

الفعلية للمعثورات وإعادة رسم تاريخ المنطقة بشكل سليم لا يتعارض مع ما تم العثور عليه.

الهوامش:

[1]–**الرسم:** يقوم الرسام بأعمال مختلفة وكثيرة والرسم في حقل الآثار يستلزم مؤهلات نادرا ما تتوفر في شخص واحد ولذلك يفضل استخدام العديد من الأشخاص ليتفرغ كل منهم لجهة معينة، وفي حالات نادرة يتوفر رسام واحد يحمل جميع الميزات اللازمة، ويجب أن يكون متقنا لطريقة رسم الألواح التي توضح الآثار بحيث تكون جاهزة للطبع والنشر في التقرير العام عن الحفريات، ويشمل عمل الرسام أيضا رسم الخرائط ومقاطع المباني والقطع الأثرية الصغيرة والأواني الفخارية وكسورها. ينظر: تقي الدباغ وآخرون، **طرق التنقيبات الأثرية**، جامعة بغداد، العراق، (د.ت)، ص 101.

[2]–**التصوير:** إن أهم المؤهلات التي يجب توفرها في المصور هي مقدرته على التصوير في كافة درجات الضوء وعلى توضيح مختلف الألوان، ويجب أن يكون يقظا وسريعا بحيث ينتهي من تصوير أي أثر من الآثار في مدة قليلة، ويشترط على المصور أن تتوفر فيه المقدرة على فهم كافة الأوضاع الخاصة بالموضوع الذي يريد تصويره، سواء كان في غرفة مظلمة أو في العراء ويفترض في المصور أن يكثر في التجوال في الموقع أثناء التنقيبات لكي يقدم المشورة إلى رئيس هيئة التنقيب بخصوص أفضل الظروف للتصوير. ينظر: نفسه، ص ص 99، 100.

[3]–بهنام أبو صوف، **التاريخ من باطن الأرض (آثار وحضارات وأعمال ميدانية)**، مطابع شركة الأديب، الأردن، 2009م، ص 56.

[4]– محمد حرب فرزات وعيد مرعي، **دول وحضارات الشرق العربي القديم**، دار طلاس، دمشق، 1990م، ص ص 31، 32.

[5]– محمد عبد اللطيف محمد علي، **تاريخ العراق القديم حتى نهاية الألف الثالث ق.م**، مكتبة الإسكندرية، مصر، 1977م، ص 03.

[6]– أمل ميخائيل بشور، **تاريخ الامبراطوريات السامية في بابل وآشور**، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس، 2008م، ص 45.

[7]–**بابل:** تقع في سهل فسيح موقعها مربع الشكل ويبلغ طول كل ضلع من أضلاعه 120 فورلنجا محيطها 480 فورلنجا، وعلاوة على مساحتها العظيمة لم تكن هناك مدينة أخرى تضاهيها فقد كان يحيط بها خندق عريض عميق مملوء بالماء ويرتفع وراءه سور من البناء عرضه 50 ذراعا مَلكية وارتفاعه 200 ذراع يجري وسطها نهر يقسمها إلى قسمين هو نهر الفرات، ويمتد سور المدينة إلى كل من جانبي النهر، حكمها عدة ملوك بذلوا جهودا ومساعدات في بناء أسوارها وتزيين معابدها. ينظر: أ.ج.إيفانز، **هيرودوت**، تر: أمين سلامة، مر: كمال الملاح، الدار القومية للطباعة والنشر، الإسكندرية، 2000م، ص ص 66–68.

[8]–**برسوبوليس:** هي الموقع الرسمي لفارس الأخمينية، لم يكن للإغريق معلومات عن هذه العاصمة الملكية حتى غزو الاسكندر الأكبر لها عام 330 ق.م، وقد صممها الملك "داريوس" مباشرة بعد توليه الحكم عام 522 ق.م. ينظر: نخبة من العلماء، **الموسوعة الأثرية العالمية**، إش: ليونارد كوتريل، تر: محمد عبد القادر محمد، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1997م، ص 67.

[9]– تقي الدباغ، **مقدمة في علم الآثار**، دار الجاحظ، العراق، 1981م، ص 25.

[10]– أحمد أمين سليم، **دراسات في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم (تاريخ العراق إيران آسية الصغرى)**، ج5، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2000م، ص 215.

[11]–**كارستن نيبور:** عالم رياضيات دنماركي ألماني المولد، مساح وجغرافي كان له دور فعال في الاكتشاف الحديث وفهم الكتابة المسمارية، أرسل عام 1761م ضمن بعثة علمية ممولة وكان هدفه استكشاف أماكن قديمة من بلاد العرب وبلاد الرافدين وأجزاء أخرى من الشرق الأدنى التي كانت مجهولة إلى غاية تلك الفترة من طرف الأوروبيين. ينظر:

Don Nardo and others, **Encyclopedia of Ancient Mesopotamia**, edit Gale Cengage Learning, USA, 2007, p 205.

(12)–علي حسن، **الموجز في علم الآثار**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1993م، ص 27.

(13)–توفيق سليمان، **دراسات في حضارات غرب آسية منذ أقدم العصور إلى عام 1190 ق.م**، ط1، دار دمشق، 1975م، ص 25.

(14)–محمد حرب فرزات وعيد مرعي، المرجع السابق، ص 32.

(15)–**باب عشتار**: تعد من بين أجمل الأعمال الجدارية التي خلفتها الحضارة البابلية، والبوابة مؤلفة من ممر طويل مزين بالزخارف الآجرية النافرة والملونة بألوان غامقة تتألق تحت أشعة الشمس، وكانت الخلفية زرقاء عليها رسوم حيوانات نافرة متعددة الألوان يغلب عليها اللون الأصفر ومتدرجة في صفوف، وتمثل الرسوم الثور والتنين والأسد والنسر وهي رموز الإلهين "أدد" و"مردوخ" ومهمتهما حراسة البوابة بقواهما السحرية، والبوابة موجودة حاليا بمتحف برلين وهي ترجع إلى القرن السابع ق.م. ينظر: حلا الصابوني وعلي السرميني، **الفن الجداري الآشوري**، مج 25، العدد 01، جامعة دمشق للعلوم الهندسية، سوريا، 2009م، (د.ص).

(16)–جون كلود مارغرون، **السكان القدماء لبلاد ما بين النهرين وسوريا الشمالية**، تر: سالم سليمان العيسي، ط1، دار علاء الدين، دمشق، 1999م، ص 34.

(17)–محمد حرب فرزات وعيد مرعي، المرجع السابق، ص 32.

(18)– سباتينو موسكاتي، **الحضارات السامية القديمة**، تر: السيد بكر يعقوب، دار الرقي، بيروت، 1976م، ص 63.

(19)–محمد حرب فرزات وعيد مرعي، المرجع السابق، ص 32.

(20)–**بهيستون**: سميت هذه الصخرة باسم أقرب قرية لمكان وجوده وهي قرية بهيستون (تسمى أحيانا بيستون Bisistun) التي تقع في منطقة شديدة الانحدار في سلسلة جبال زاجروس بإيران، وتقع هذه الصخرة في الضفة اليسرى لنهر "ساماس– أب" والنطق الأصلي لهذا الاسم هو "باجيستانا" ويعني مكان الآلهة. ينظر: نخبة من العلماء، **الموسوعة الأثرية العالمية**، ص 172.

(21)–أحمد أمين سليم، المرجع السابق، ص 215.

(22)–**الكتابات الفارسية**: في عام 1846م أصدر "رولنسون" مجلدين بعنوان "نقوش بهيستون المسمارية الفارسية" ويحويان الترجمة الكاملة، وفي العام نفسه أصدر الباحث "إدوارد هنكس Edward Hinks" ترجمة منفصلة للنقش. ينظر: غلين دانيال، **موجز تاريخ علم الآثار**، تر: عباس سيد أحمد محمد علي، ط1، دار الفيصل الثقافية، الرياض، 2000م، ص 100.

(23)–توفيق سليمان، المرجع السابق، ص 26.

(24)–محمد حرب فرزات وعيد مرعي، المرجع السابق، ص 34.

(25)–**العصر الأخميني**: نسبة إلى الأخمينيين وهي سلالة مالكة فارسية أسسها الملك "قورش الثاني" عام 550 ق.م، وسميوا كذلك نسبةإلى جدهم الأكبر "أخمينيس"، وحدوا القبائل الفارسية وهزموا الميديين، استولى قورش

على أجزاء من آسية الصغرى وبابل، واحتل "قمبيز" مصر عام 525 ق.م. ينظر: هنري س.عبودي، **معجم الحضارات السامية**، ط2، دار جوروس برس، لبنان، 1991م، ص 52.

(26)–محمد حرب فرزات وعيد مرعي، المرجع السابق، ص 29.

(27)–**خرسباد:** هو الاسم الثاني لعاصمة الملك "سرجون الثاني" (705–721 ق.م) والمسماة "دور شروكين"، تقع آثارها على بعد عشرين كيلومترا شمال الموصل وكشف في هذه المدينة عن معبد واسع للإله الآشوري "سيبيتي Sibiti" الذي يرمز له بنجم الثريا. ينظر:عبد الرزاق الحسني، **العراق قديما وحديثا**، ط3، مطبعة العرفان، لبنان، (د.ت)، ص 76.

(28)–سباتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص 62.

(29)–**موقع الجمجمة:** قرية على الضفة اليسرى لشط الحلة أحد فرعي نهر الفرات وتقع في الطرف الجنوبي لمدينة بابل، استخرج منها سكان القرية كميات كبيرة من رقم الطين المطبوخ من الخربة المجاورة لقرية الجمجمة وباعوها لتجار الآثار ومنهم انتقلت إلى المتاحف العالمية، وكانت تلك الرقم تؤلف خزانة من عهد الملك نبوخذ نصر. ينظر: كوركيس عواد، **خزائن الكتب القديمة في العراق منذ أقدم العصور حتى 1000 للهجرة**، ط2، دار الرائد العربي، لبنان، 1986م، ص 60.

(30)– H.Cavaniole, **Les Monuments en Chaldée en Assyrie et à BabyloneD'après Les Découvertes Archéologiques**, Libraires A.Durant et Pedone Lauriel, Paris, 1870, p p 275– 277.

(31)–**المسح الأثري:** هو ارتياد المواقع القديمة التي بقيت آثار الإنسان على سطحها لاختيار موقع الذي يمكن إجراء الحفائر فيه، وغالبا ما تكون هذه الآثار قد تأثرت بالكثير من العوامل المختلفة من مظاهر السطح والخطوط الكنتورية وتغيرات الطقس وتطور الزراعة وتوسع المستوطنات السكانية وما فرضته الأعمال التحصينية لهذه المستوطنات، وليس بالضرورة أن تكون استنباطات الأثريين صائبة لأن هذه المواقع الأثرية تعطي عند الحفر غالبا ظواهر جديدة معقدة أكثر مما تتيحه استقراءات سطح الموقع، ومن هنا فإن المسح الأثري أو بمعنى آخر التحقيقات المبدئية الخاصة بالموقع القديم قبل الحفر فيه لابد أن تكون كاملة وشاملة بحيث يدخل فيها ضرورة فحص هذا الموقع وكل ما يحيط به من ظواهر، وضرورة الوقوف على الأعمال التنقيبية التي أجريت فيه من قبل وكذلك الإحاطة بالظواهر التوثيقية من الناحية الجيولوجية طبيعة التربة ونوع النباتات . ينظر: عاصم محمد رزق، **علم الآثار بين النظرية والتطبيق**، مكتبة مدبولي، (د.م)، (د.ت)، ص ص 93، 94.

(32)–**المجسات:** تستخدم هذه الطريقة إذا كانت الآثار مطمورة ولكن على عمق صغير من السطح ويستعمل في ذلك أداة بشكل قضيب من الصلب قطره نصف بوصة وطوله 40 بوصة ويثبت بإحكام عند نهايته العليا مقبض خشبي متين وسميك بشكل حرف "T". ينظر: فوزي عبد الرحمن الفخراني، **الرائد في فن التنقيب عن الآثار**، ط2، جامعة قار يونس، ليبيا، 1993م، ص 155.

(33)– نخبة من العلماء، **الموسوعة الأثرية العالمية**، ص 295.

(34)– محمد عبد اللطيف محمد علي، المرجع السابق، ص 07.

[35]– سباتينو موسكاتي، المرجع السابق، ص ص 62، 63.

[36]–**كبدوكية:** منطقة في آسية الصغرى على نهر الهاليس الأعلى شمالي قليقلة، عاصمتها مازاقا التي دعيت فيما بعد القيصرية، وتقع المنطقة غربي الفرات الأعلى. ينظر: هنري س. عبودي، المرجع السابق، ص ص 709، 710.

[37]– منيس عبد النور وآخرون، **دائرة المعارف الكتابية**، مج08، ط1، دار الثقافة، القاهرة، 2001م، ص 125.

[38]– أمل ميخائيل بشور، المرجع السابق، ص 52.

[39]–**حفائر هورموزد رسام:**كان يتبع في حفره أسلوب التنقيب الواسع السريع في عدد من المواقع في آن واحد حيث كان يضع في كل موقع مجموعة من العمال تعمل لحسابه وتجمع له الآثار المكتشفة وهو ينتقل بينها وقد يغيب أشهرا ثم يعود لالتقاط بعض الملاحظات وتسلم الآثار وإرسالها إلى المتحف البريطاني الذي كان يعمل لحسابه، وكانت طريقة عمله هذه فاتحة لظاهرة التنقيبات الغير مشروعة والنبش العشوائي التي عمت البلاد ولسنوات عديدة لاحقة بتشجيع من وكلاء المتاحف الأوربية وهواة جمع التحف في الخارج. ينظر: بهنام أبو صوف، المرجع السابق، ص ص 28، 29.

[40]– سيتون لويد، **آثار بلاد الرافدين من العصر الحجري القديم حتى الغزو الفارسي**، تر: محمد طلب، ط1، دار دمشق، سورية، 1992م، ص ص 272– 276.

[41]– M.Joachim Menant, **Ninive et Babylone**, Librairie Hachette, Paris, 1888, p p 30, 31.

[42]– فقد "فيكتور بلاص" في أيار 1855م 209 صندوقا من أصل 235 التي كانت تنقلها القافلة، حيث كان الجزء الأكبر منها مرسلا إلى متحف اللوفر، ووجه كتابا إلى وزير الدولة "م. فولد" يذكر فيها ما يلي: "على اعتبار أن الحكومة الفرنسية هي المانحة للاعتماد العائد لمدة الارسالية، لن أذكر لسعادتكم كل ما أشعر به، بعد أن علمت بفقد ثمار النفقات والأعمال الكبيرة إلى غير رجعة، فقد أنساني الأمل الكبير بأنني سأشاهد متحفا قد اغتنى بمثل تلك الاكتشافات، رغم كل المتاعب وكل مرارة تكبدتها خلال أربعة سنوات، كما أعتقد بعد مشاهدتكم النتيجة ستغفرون لي سيادتكم وتقدرون هذه المعاناة التي تحملها تجاه هذه التنقيبات، وأني لا أنكر عطفكم وكرمكم نحوي، ففي لحظة واحدة أبيدت كامل الآمال المشروعة ولم يبقى لدي إلا أن ألتمس منكم عدم لومي أو مساءلتي عن هذه النكبة التي جلب لي كل التعاسة". ينظر: جون كلود مارغرون، المرجع السابق، ص 35.

[43]– بهنام أبو صوف، المرجع السابق، ص 66.

[44]–**Loftus**: اسمه الكامل "Loftus William .K" جيولوجي إنجليزي أصبح مبكرا رائد علم الآشوريات عندما نقب في مدينة "أوروك"، ومثل العديد من المثقفين الأوروبيين المعاصرين له أراد هذا الباحث من خلال تنقيباته ومعثوراته من المصنوعات اليدوية أن يؤكد أصالة البيانات التي نسبت إلى المنطقة من خلال التوراة، وقد بحث عن المدينة المسماة "Erech" في مضمونها وقد كشف عن أسوار المدينة الدفاعية التي كانت في حالة سليمة وحدد ارتفاعها بـ 50 قدم، كما نقب فيما بعد ضمن خرائب مدينة "لارسا" وكشف عن معبد الإله

"شمش" ونشر بحوثه ورحلاته عن منطقتي سوزا وكلديا سنة 1857 عاما قبل موته. ينظر: Don Nardo and others,Op.cit, p 169.

(45)– H.L.Feer, **Les Ruines de Ninive au Description des Palais Détruits des Bords du Tigre**, Société des écoles de Dimanche, Paris, 1864, p p 45, 46.

(46)–**ماكس مالوان:** عالم آثار إنجليزي تقدمت بفضله الدراسات الحديثة بشكل ملحوظ في بلاد الرافدين والمناطق المجاورة لها، تلقى "مالوان" تعليما كلاسيكيا في جامعة أكسفورد ومباشرة بعد ذلك بدأت خدمته البارزة ما بين (1925– 1931م) كمساعد للباحث العظيم "تشارلز ليونارد وولي" الرائد في التنقيب عن مدينة "أور"، وقد توجه للعمل في العديد من المواقع المجهولة في بلاد الرافدين ثم استمر عمله في الموقع الآشوري الشهير "نمرود". ينظر: Don Nardo and Others, Op.cit, p 112.

(47)– بهنام أبو صوف، المرجع السابق، ص 73.

(48)–**الفن الآشوري:** من بين ما احتواه القصر مشاهد للصيد الذي لا يعتبر مجرد رياضة نبيلة وإنما كأفضل وسيلة للتدرب على فنون الحرب، ويعد الملك "آشور ناصربال" أول ملك آشوري يظهر ضمن النقوش وهو يصطاد الأسود والثيران وبحوزته عربة وقوس، ويظهر في هذا النقش البارز الملك وبرفقته سائق العربة الحربية ومجموعة من الجنود، وقد مثلت هذه المشاهد بطريقة بارزة حيث يظهر الملك بملامح رياضية جد متميزة. ينظر:

André parrot, **Assur**, édit Gallimard, France, 1969, p 54.

(49)– Paule Gaffarel, **Histoire Ancienne des Peuples de L'Orient Jusqu'au Premier Siècle Avant Notre ère**, édit Alphonse Lemere, Paris, (s.d), p 180.

(50)–Stratigraphie: الطريقة الستراتيجرافية وتعتبر هذه الطريقة من الاكتشافات الكبيرة والحديثة في فن الحفر والتنقيب في السنوات الأخيرة، فهي ذات أصل جيولوجي وباليوثنولوجي (علم أنواع مطمورات الأرض من نبات) وذلك لأن هذا يساعد على تحديد وإعطاء دلائل تاريخية متسلسلة، وتتطلب هذه الطريقة الخاصة بعلم طبقات الأرض التطبيق الدقيق حينما يتعلق الأمر بمناطق آثار تعود إلى عصور ما قبل التاريخ سواء كانت على سطح الأرض أو مقابر أو أماكن صحراوية أو أماكن بها مياه أو على ضفاف الأنهار والبحيرات. ينظر: علي حسن، المرجع السابق، ص 54.

(51)–محمد حرب فرزات وعيد مرعي، المرجع السابق، ص 35.

(52)–منى يوسف نخلة، **علم الآثار في الوطن العربي**، دار جروس برس، لبنان، (د.ت)، ص 15.

(53)–تقي الدباغ، **(مقدمة في علم...)**، المرجع السابق، ص 46.

(54)–**التسجيل:** يقوم الأثاري أثناء عمليات الحفر والتنقيب بتسجيل سير العمل وكتابة كل ما يجري في حقل العمل لحظة بلحظة، وهذا ما نطلق عليه "اليوميات"، وكذلك عليه أن ينشأ ملفات لحفظ الوثائق والسجلات والدفاتر واللوائح والصور والنشرات التي توضح سير العمل وتفسير المنقب على أن يكون هناك أرشيف كامل لكل شيء، ولكن من الأشياء الهامة في هذا الأرشيف هو التسجيل الأثري لما يعثر عليه في السجلات بعد الترميم. ينظر: علي حسن، المرجع السابق، ص 64.

[55]–نخبة من الباحثين العراقيين، **حضارة العراق**، ج1، دار الحرية، بغداد، 1985م، ص ص 65، 66.

[56]– سيتون لويد، المرجع السابق، ص 307.

[57]– جون كلود مارغرون، المرجع السابق، ص 41.